نظرية التكليف الشخصي في الحركةِ الحسينيةِ " قراءةٌ نقديةٌ في الأدلةِ والآثار الفقهيّة "

م.د. حيدر شوكان سعيد.

جامعة بابل/ كلية العلوم الإسلاميّة/قسم الفقه وأصوله.

Abstrat

The importance of this research lies in working to answer the following questions:

First: What is the legal value of the theory of personal commissioning in terms of the evidence on which it was based?

Second: What is the jurisprudential and legal vision that can result from it, after its metaphysical competence with Imam Al-Hussein exclusively, especially in the provisions of armed jurisprudence, such as the topic of jihad and advocacy, armistice and piety, and the promotion of virtue and forbidding what is wrong?

Third: What are the implications of this theory for the rationality of al-Husayni's condolences and the roles they play?

Fourth: How can you respond to some of the problems and questions that intercepted the Husseinian movement from within the Islamic space, and from outside it, such as the analyzes of some orientalists?) to defend and repel him?υIs it sufficient to recognize the imam's infallibility)

المقدمة

من أبرز المزايا الركينة في الثقافة الإسلاميَّة أنها تعيش الحاضر والمستقبل بموجهات من الماضي المعرفي بفنونه وعلومه وأسمائه. فلا يستطيع أحد أن ينكر أن حضور الجيل الأول من زمن الرسالة المحمدية لا يزال حاضرًا في وعينا حضورًا متزامنًا. وبزمن واحد– تقريبًا–، وتسليط الضوء على أحداثهم التي تولد فيها الإطار المرجعي للنص، ومحاولة تكشيّف مقولاتهم وتحليلها بشكل ينسجم مع لوازم العصر، وفهم النظريات التي عرضت لها، يساعدنا ذلك على استيعاب خصوصيات الفكر الدينيّ ومنطلقاته وتطوره التاريخي.

ومن الوقائع الحية الموصوفة بصناعتها للحياة الوجدانية والاجتماعية والسياسية في محددات الثقافة الإسلامية هي واقعة كربلاء.

تكتسب الحركة التي قام بها الإمام الحسين بن علي"عليه السلام" في 61هـ مع مجموعة من أهل بيته وأصحابه ضد الحكم الأموي المتمثل في يزيد بن معاوية قدرًا واسعًا في الوجدان الإسلامي والشيعي بالخصوص، إذ لم يعرف العالم الإنساني بتاريخه ملحمة قمة في الإباء والعنفوان والشهادة، وقمة في التراجيديا والعاطفة. ألهمت الحرية والثورة ومقولة الحق بوجه الحاكم الجائر صورًا متوهجةً ومتدفقةً بالحماسة، يقدم فيها القائد القربان تلو القربان، ويطعم الموت خير الأحبة، ليأمر بالعدل والإحسان، ويرفع الظلم والفساد، وهو القائل لأنصاره: " **ألا ترون أنَّ الحق لا يعمل به، وأنَّ الباطل لا يتناهى عنه ؟ ليرغب المؤمن في لقاء اللّه محقًّا ; فإنّي لا أرى الموت إلَّا شهادة ولا الحياة مع الظالمين إلَّا برمًا.**"[140] وأما كونها قمة في العاطفة، لأنَّ ما حصل في كربلاء لم يكن حربًا أو معركة، وفق قواعد الاشتباك المعمول بها في تعاليم الإسلام وأعراف العرب، بل استباحة لكل شيء معتبر، يقول **أبو حيان البيروني:** " لقد دار مع الحسين وأهل بيته ما لم يدر في ملّة، بل ما لم يدر مع الأشرار من الناس من قتل وعطش وإحراق وحز للرؤوس ووطء للأجسام ".[141] لذلك نسمع الإمام علي بن الحسين يقول: "**ولا يوم كيوم الحسين.**"[142]

وقد بلغت جسامة الجناية مبلغًا انعكس حتى على من اقْتَرَفَها، فعاش بعضهم تحت تأنيب الضمير وعذاباته، كما يروى عن شبث بن ربعي .[143]

([140]) الطبري (ت310هـ)، تاريخ الأمم والملوك،305/4.

([141]) الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: برزيز اذكائي، مركز ميراث مكتوب – طهران -1380ش، الطبعة الأولى-420.

([142]) الشيخ محمد باقر المجلسي (ت1111هـ)، بحار الأنوار، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، مؤسسة الوفاء– بيروت، 1403هـ، 298/44.

([143]) ينظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار التراث العربي – بيروت -1387هـ، 332/4.

لقد اجتذبت هذه الحركة – ولاسيَّما في المرحلة الأخيرة – دراسات متعددة، وحضت بقراءات مختلفة على المستوى الكلامي، والسياسي، والاجتماعي، والفقهي، والأدبي، وكان العنوان الأبرز في هذه المستويات، والذي **وقع الخلاف فيه** هو: ماهية الحركة وحقيقتها، وبيان الباعث فيها، وإقامة الدليل عليها. والمقدار الذي يمكن أن تمنحه على مستوى الاقتداء والامتثال .

وفي هذا البحث سنقارب ماهية الحركة وفلسفتها بلحاظ آثارها بالميدان الفقهي –حقل الاختصاص– لأنَّ هذا الميدان، يمكن أن يساعدنا على تقديم وعي أعمق، وفهم أدق للحركة الحسينية، بملاحظة الثمار والآثار الناجمة عن قراءتنا لها خصوصًا في ميدان الهدنة، والخروج على الحاكم الجائر، وعنوان التقية والإلقاء النفس في التهلكة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وو . وما نستطيع أن نشير إليه أن أغلب علماء الإمامية المتقدمين نادرًا ما بحثوا هذه الحركة في ضوء المقررات الفقهية، وإن عرضوا لها، فتأتي عبارتهم مختصرة ؛ والسبب يعود إلى سريان الفهم القائل: بأن للإمام الحسين" **تكليف خاص قد قدم عليه، وبادر إلى إجابته.**"[144]

وقد طرحت قراءات ونظريات محتملة في ميدان فلسفة الثورة الحسينية، بعضها جاء في وقت مبكر، وهي أربع نظريات:

الأولى: النظرية السياسية " إقامة الحكومة الإسلاميّة العادلة " التي أشار إليها السيد المرتضى(ت436هـ)، والشيخ الطوسي(ت460هـ)، ومفادها: أن الإمام الحسين(عليه السلام) خرج إلى الكوفة من أجل استلام السلطة ليقيم حكومة السماء العادلة، وليطبق الحكم الشرعي، "وأسباب الظفر بالأعداء كانت لائحة "[145]، وبذلك تكون معركة الطف مثل معركة بدر وأحد والخندق أو معركة الجمل وصفين والنهروان. [146]

والثانية: نظرية التكليف الإلهي الشخصي" التي قبلها عدد غير قليل من فقهاء الإمامية[147]، **ومفادها:** أن الثورة الحسينية هي من مختصات الإمام الحسين (عليه السلام)، وهي ذات بعد غيبي عصي على الفهم ومتعالٍ على الزمان والمكان، فكما أن هنالك واجبات وتشريعات خاصة بالنبي(صلى الله عليه وآله) كوجوب صلاة الليل مثلًا، كذلك كانت ثورة الحسين(عليه السلام) تكليفًا إلهيًا خاصًا به، ومتوجهًا إليه.

والثالثة: النظرية القبلية: وهي تفسرُ الأحداث على أساس عشائري قبلي، وتعتمد على أن القبيلة أحد المحددات الاجتماعية والثقافية التي حكمت العقل السياسي العربي. ومن ثَّم، من غير السليم نزع هذا البعد عن حركة مهمة في مجتمع تمثل فيه العصبية القبلية أحد الأمور المعتبرة، وبذلك قدمت حركة الحسين بوصفها حلقة في سلسلة النزاع الممتد على الوجاهة والزعامة في مكة بين بني هاشم وبني أمية. واعتلوا لها بالقصائد والأناشيد التي قالها رجال البلاط الأموي كالأخطل، أو أشعار يزيد نفسه. وقد روجت هذه النظرية أجهزة السلطة الأموية، وتبناها بعض المستشرقين،[148] والغريب أن بعض خطباء المنابر الشيعية، يرددونها من حيث لا يشعرون!!

والرابعة: نظرية الشفاعة: وهي ترى أن الحسين ارتضى مصير الشهادة، لنيل منصب الشفاعة الكبرى التي من خلالها يستخلص جميع المؤمنين والموالين الذين يبكوه، ويجزعون عليه، ويتمنّوا الحضور معه ليفوزوا فوزًا عظيمًا. وبذلك تغفر ذنوبهم. وهذه الدرجة لا ينالها إلا باستشهاده؛ لأنَّ محو معاصي الأمة والشفاعة لها متوقّف على مسيل الدم، وبروز الألم. وهذه موجز

([144]) الشيخ محمد حسن النجفي (ت1266هـ)، جواهر الكلام،تحقيق: تحقيق وتعليق: الشيخ عباس القوچاني، الناشر: دار الكتب الإسلامية – طهران – الطبعة الثالثة -1362ش، 21/ 296.

([145]) السيد المرتضى، تنزيه الأنبياء، الناشر، دار الأضواء بيروت – الطبعة الثانية،1904هـ،229.

([146]) ينظر: تنزيه الأنبياء، 227-231. والسيد محمد باقر الحكيم، ثورة الحسين، 19.

([147]) ينظر: السيد علي بن طاووس (ت664هـ)، اللهوف في قتلى الطفوف، الناشر: أنوار الهدى - قم - إيران الطبعة: الأولى-1417هـ، 18. والشيخ محمد حسن النجفي(ت1266هـ)، جواهر الكلام، 21/ 296. والشيخ محمد باقر المجلسي (ت1111هـ)، بحار الأنوار، 45/ 98- 99. والشيخ المامقاني، تنقيح المقال، 327/2. (الطبعة الحجرية). والشيخ جعفر التستري، الخصائص الحسينية، المطبعة الحيدرية النجف الاشرف، الطبعة الرابعة – 1950هـ، 30- 31. والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، جنة المأوى، الناشر: دار الأضواء –بيروت – الطبعة الثانية،1988م. والسيد محسن الأمين، لواعج الأشجان، 253. والسيد محمد الصدر، شذرات من فلسفة تاريخ الحسين، 165-166.

([148]) يوليوس ڤلهوزن(ت 1918م)، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1958م، 187-188. واجناس جولدتسيهر (ت1921م)، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة علي حسن ومحمد يوسف وعبد العزيز عبد الحق، مكتبة المثنى –بغداد ودار الكتب الحديثة– مصر، الطبعة الثانية، 197.

عبارات بعض العلماء الذين قدموا هذه القراءة [149]، ويبدو عليها السمة النصرانية في التحليل؛ لأنَّ النصارى يقدمون صلب المسيح بفكرة الفداء لغفران الخطايا.

ولكن مع النصف الثاني من القرن العشرين طُرحت آراء ومفاهيم تحليلية جديدة انعكست في حضور الحماسة والثورة في العالم الإسلامي، وإعادة تصميم الرؤى النهضويّة على معالم عاشوراء . حتى ان بعض الغربيين ذهب إلى أن هذا اللون من التفكير هو من شكل الأرضية المناسبة للأصولية الشيعيَّة والإسلاميَّة في العالم[150]، يمكن أن نستعرض أبرز هذه المقولات، وهي:

أولًا: قراءة الشيخ نعمة الله صالحي نجف آبادي(ت2006م) للحركة الحسينية في كتابه" الشهيد الخالد" [151] وهي تعبير عن إعادة بناء وترميم للنظرية السياسة التي جاءت في "تنزيه الأنبياء" للسيد المرتضى.

ثانيًا: نظرية **إحياء الأمة** " البعد الرساليّ" للسيد محمد باقر الصدر كما نقلها البعض[152]، وتابعه عليها فريق من العلماء[153]، والتي مفادها: ان الفساد الذي خرج الحسين للنهي عنه تمثل في أنَّ الأمة قد أصيبت بمرض تبتلى به أكثر الرسالات، وأكثر الحضارات الإنسانية، وهو الفتور في الإرادة، نتيجة لعوامل عديدة بدأت منذ تشويه مفهوم القيادة الإسلامية بعد النبي(صلى الله عليه وآله) وصولًا إلى انتقال الأمر إلى معاوية، وما مورس في هذه الفترة – باستثناء حكم الإمام علي والحسن (عليهما السلام)– من تزييف للحقائق وقلبها، فأثر ذلك في الشخصية الإسلامية، فأخذت الأمة تنظر إلى الحاكم الجائر وهي تعلم بظلمه واستبداده وميله عن الحق، ولكنها مشلولة الفعل بغياب إرادة المواجهة. ووفقًا لذلك، فان الحل يكمن في أنَّ يقوم بثورة عظيمة تؤدي به إلى استشهاده، وبما يتمتع به من منزلة رفيعة في الوجود الإسلامي، سيقود الاستشهاد إلى ثورة وجدانية تضرب الأمة في إرادتها، وتشرع في رفع الظلم والاستبداد عنها .

وقريب منها يذهب الدكتور **علي شريعتي** فيرسم مخطّطًا عن الأوضاع الاجتماعية السائدة في تلك المرحلة، مستفيدًا من معايير علم الاجتماع التاريخيّ، فيقرر: بأن هدف الإمام الحسين كان الاستشهاد من أجل تمزيق أغشية الظلم والخديعة الأموية، وبمعزل عن علم الإمام بالغيب، فإن الشواهد والملاحظات الموجودة، لا تسمح بأي فرصة للظفر على الأمويين .ومن ثم، كانت الشهادة هي المنال والمبتغى، والطريق الذي به يضخ الدماء الجديدة في الحياة والجهاد .[154]

ثالثًا: نظرية "**الفصل بين السلطة الدينية والسياسية** " للشيخ محمد مهدي شمس الدين[155]، والأستاذ محمد عبد الباقي سرور[156]، إذ ترى أنَّ منصب الخلافة إلى عهد معاوية لا يمثل مجرد سلطة سياسية – تنظيمية، وإنما يمثل بالإضافة إلى ذلك مرجعية شرعية في شؤون العقيدة والشريعة. وقد كان يزيد بن معاوية في تربيته المسيحية وثقافته الرومانية، وعلاقاته مع الجيل الشاب من بني أمية، وهو جيل لا يفقه من الإسلام شيئًا، وبذلك يمكن عده خطرًا في أن يعتبره المسلمون مرجعهم الشرعي، بالإضافة للصفة السياسية. وهذا يشكل خطرًا على الإسلام عقيدة وشريعة. ومن ثَّم، فان هذا الخطر لا يمكن السكوت عليه. وقد اكتفى الإمام الحسين في بداية الأزمة بالامتناع عن البيعة ليحول دون تمتع يزيد بصفة المرجعية الدينية عند عامة المسلمين . ولمّا واجه الخيار بين البيعة والقتل آثر الثورة الاستشهادية " الانتحارية" ليسجل هذا الموقف المبدئي .

([149]) ينظر: الشيخ محمد مهدي النراقي (ت 1209هـ)، محرق القلوب، المطبعة الحجرية،4. وميرزا محمد باقر شريف الطباطبائي، أسرار شهادة آل الرسول صلوات الله عليهم، بدون مشخصات مكتبية، 133-134.

([150]) ينظر: عبد الحسين حاجي ومحمد نوري، حادثة عاشوراء في الدراسات الغربية، كتاب " جدل ومواقف في الشعائر الحسينية، الناشر: دار الهادي – بيروت، 1430هـ،199.

([151]) ينظر حول الكتاب وردود الأفعال حوله: السيد حسن إسلامي، العزاء سنة دينية أم فعل اجتماعي ؟، ترجمة: حيدر حب الله، مجلة نصوص معاصرة –بيروت –خريف 2006م، 8/ 13-25.

([152]) ينظر: السيد محمود الهاشمي، محاضرات في الثورة الحسينية، الناشر: مكتب السيد محمود الهاشمي، المطبعة نمون، 93.

([153]) ينظر: السيد محمود الهاشمي، محاضرات في الثورة الحسينية،65 . وهاشم معروف الحسني، الانتفاضات الشيعية، الناشر: دار التعارف – بيروت، 1410هـ، 274-277 . وسيرة الأئمة الاثني عشر، منشورات الإمام الرضا– لبنان، الطبعة السابعة، 2/ 90 -92. والشيخ جعفر سبحاني، الأئمة الاثني عشر، 77-89 . والشيخ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسين، المطبعة: مطبعة الآداب - النجف الأشرف، الطبعة الأولى -1395هـ، 278/2.

([154]) ينظر: الحسين وارث آدم، 192.

([155]) ينظر: فقه العنف المسلح في الإسلام، الناشر: المؤسسة الدولية – بيروت، الطبعة الأولى -1422هـ، 128-129.

([156]) الثائر الأول في الإسلام، 79.

يبدو لنا أن هذه التطور في التحليل المعاصر لفلسفة الثورة بالنزوع بها بعيدًا عن التكليف الشخصي للإمام الحسين(عليه السلام)، ومحاولة إعادة توجيهها نحو الثورة والرفض والنهضة والعدالة جاء نتيجة لأمرين:

الأول: دخول العقل الشيعي في الحياة السياسية، فمنذ ثورة العشرين وقيادة الفقهاء لها، وفتوى التنباك مع السيد الشيرازي، وتجربة الأحزاب الإسلامية الشيعية في خمسينيات القرن العشرين طرأت تبدلات في فهم العقل الشيعي للأحداث التاريخية ورموزها، وكيفية توظيفها في ميدان السياسة والنهضة، والتفكير والحياة. فجاءت مفردات ومضامين الثورة والسياسة واضحة في عناوين مصنفات المرحلة، ومنها: "مع الحسين في نهضته" للشيخ أسد حيدر. "والملحمة الحسينية" للشيخ مرتضى مطهري، و" محاضرات في الثورة الحسينية " للسيد محمود الهاشمي، "ودور عاشوراء في بلورة الثورة الإسلامية واستمرارها" لمقصود ونجبر، و"ثورة الحسين" للسيد محمد باقر الحكيم، و" دور ثورة الإمام الحسين في تعزيز فقه المواجهة مع الطاغوت " للشيخ جواد فخار الطوسي، "والبحث الفقهي لشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ثورة الإمام الحسين" لمحمد رحماني، وو.

الثاني: كان لإنفتاح الباحثين والمشتغلين بالعلوم الدينية على آخر منجزات العلوم الإنسانية التي لها صلة بالعلوم الدينية كالهرمنيوطيقيا، والألسنية، وفلسفة العلم، والقانون والحقوق، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا وغيرها، أثرٌ في تكشيف المناطق المستبعدة في دلالات الواقع التاريخي وانعكاسه على فهم الحركة التاريخية، والكشف عن حالات التطور والجمود فيها .

وخير مثال لذلك هو رؤية الشيخ محمد شمس الدين، فاعتماده على المنهج التأريخاني في فك الالتباسات والظروف التي ميزت عهد يزيد وشخصه، هي من دفعته للحكم على اختيارات الحسين في المواجهة. والقول بأن عاشوراء استهدفت فصل الزمني عن الدينيّ، فالخليفة يتولى مهمة سياسية تنظيمية محضة، والإمام المعصوم(عليه السلام) أو نوابه عند الإمامية يتكفلون بمهام المرجعية الدينية، وعند غيرهم من المذاهب يتولى هذه المهمة الفقهاء . والحال نفسه عند الدكتور علي شريعتي إذ استفاد من فلسفة وعلم التاريخ في بيان معطاه حول الحركة الحسينية .

إن **أهمية هذا البحث** تكمن في العمل على الإجابة على التساؤلات الآتية:

أولًا: ما القيمة الشرعية لنظرية التكليف الشخصي من حيث الأدلة التي ارتكزت عليها ؟

ثانيًا: ما الرؤية الفقهية والحقوقية التي يمكن أن تترتب عليها، بعد اختصاصها الغيبي بالإمام الحسين دون غيره، ولاسيَّما في أحكام الفقه المسلح، كموضوع الجهاد والدعوة، والهدنة والتقية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

ثالثًا: ما انعكاسات هذه النظرية في عقلانية مراسيم العزاء الحسيني والأدوار التي تؤديها ؟

رابعًا: كيف يمكن أن تجيب على بعض الإشكالات والاستفهامات التي اعترضت الحركة الحسينية من داخل الفضاء الإسلامي، ومن خارجه كتحليلات بعض المستشرقين؟ وهل يكفي التسليم بعصمة الإمام (عليه السلام) للدفاع عنه والصد ؟

ويبقى أن أشير إلى ان كل واحدة من هذه النظريات بحاجة إلى دراسة مستقلة في الأدلة والملاحظات التي ترد عليها، إلَّا أن ما يعنينا هو الثمرة الفقهية المترتبة على الآثار فيما لو قُرنت نتائج ومخرجات هذه النظريات مع نظرية البحث، وبذلك ارتأينا أنَّ نسلط الضوء عليها في هذه الإطلالة، فاردين العرض المفصل للفهم الشخصي الغيبية كباعث في حركة الحسين وملامسة آثاره على الصعيد الفقهي لممطالب القابلة، فيكون المرضي لنا أن نجعل البحث بالمباحث الآتية:

المبحث الأول: مفهوم نظرية التكليف الشخصي.

المبحث الثاني: أدلة نظرية التكليف الشخصي ومناقشتها.

المبحث الثالث: الآثار الفقهية المترتبة عليها.

المطلب الأول: التعمية على الفقه السياسي.

المطلب الثاني: التعمية الفلسفية والفكرية في رد الشبهات.

المبحث الأول: مفهوم نظرية التكليف الشخصي.

إن هذه النظرية تحاول أن تفسر حركة الإمام ببواعث علم الغيب، إذ ترى أن الإمام الحسين كان يعلم بحادثة كربلاء، وماذا سيجري عليه وعلى أهل بيته، وهي غاية في نفسها، وقضية لها موضوعها . فتحركه كان نتيجة لتكليف خاص به، وأنه نظرًا لإمامته ولعصمته قد وردت له موجهات خاصة أما بالإلهام أو بالرواية عن جده النبي (صلى الله عليه وآله)، فنطلق لتلبيتها.

فيكون الدافع الحقيقي هو الامتثال لخارطة الطريق التي رسمها عالم الغيب. فالإمام لم يخطط ويقرأ الساحة الإسلامية بحيثياتها السياسية، وتدافعها الاجتماعي، إنما الذي قرأ وأمر هي السماء، ولم يكن خلف هذه الثورة أي بعد اجتماعي أو سياسي.

ورغم اعتراف أصحاب هذه النظرية[157] أن هذا التكليف قد ترك آثارًا كبيرةً في الوجود الإسلامي، إذ غذت ثورة الحسين الفكر السياسي الإسلاميّ، بمادة من التحدي، والبذل من أجل المبدأ، وقد ضربت في أعقابها دولة الأمويين عاصفة ثورية عارمة، كان من نتائجها القريبة إسقاط الحكم السفيانيّ، دون أن ينجو منها الحكم المرواني على المدى الأبعد، ويصبح الموقف السياسي العام مباشرة بعد كربلاء على النحو الآتي: في الحجاز كان هناك عصيان مسلح في المدينة، وإعلان أبن الزبير دولته في مكة. وفي العراق تطورات مذهلة، انعكست خاصة على الحركة الشيعية التي اشتدّت عليها وطأ الملاحقة، كما أثقلتها عقدة الذنب والتقصير، مما أدى إلى إفراز حركة التوابين "الانتحارية"، وحركة المختار الثقفي ومعها أول سلطة منذ تنازل الإمام الحسنعليه السلام. أما في الشام فقد تراكمت كل سلبيات الانهيار السياسي، فعانت من حرب أهلية التهبت نيرانها بعد وفاة يزيد 64هـ، وتنازل ابنه معاوية الثاني عن الحكم، مما أوقع الأسرة الحاكمة في الفراغ والانقسام .[158]

إلَّا أنهم يعللون ذلك: بأنها لم تكن منظورةً للحسين عليه السلام. فلم يستهدف تعريف الناس بأهمية الدين وضرورة التضحية له عند الحاجة بالنفس والمال والولد. ولا إسقاط الحكم الجائر وفضحه وكشفه للمخالف والمؤالف، واستعادة الحق المسلوب، ولا تنشيّط النباهة الاجتماعية للأمة، ولا فصل السلطة الدينية عن السياسية، ولا أي شيء آخر.

" نعم كان يطلب ثواب الله عز وجل، وجزاءه الأخروي. تمامًا كما يفعل أي مؤمن حين يؤدي أي وأجب ديني كالصلاة أو الصوم، أو الحج. وهذا هو الهدف الشخصي له، وليس من أهداف الحكمة الإلهية في حركته فإنَّ الحكمة الإلهية وإن كانت تريد امتثاله وطاعته سلام الله عليه إلَّا أن هذا مما يعود إليه لا أنه يعود على غيره ."[159]

وقد هيمنت هذه النظرية التي شُحنت بالبعد المأساوي والتراجيدي من دون المساس بالأحكام الفقهية، أو الحيثيات السياسية، أو الاجتماعية للأمة إلَّا نادرًا، على مساحة واسعة من محددات المخيال المعرفي الإماميّ، وربما كان من دواعيها– كما سنشير إليه– طبيعة الفضاء السياسي، وبروز الحركة الإخباريّة التي انشغلت بالقراءة الحرفية للنصوص مبتعدة عن تفسير الأحداث باشتراطات الواقع الزمنية. ونستطيع تلمس ذلك من خلال بعض الكتابات التي تناولت قيام الحسين، وظروفه الحرجة، فقد قام الباحث الإيراني محمد اسفنديارى[160]، بعملية جرد وإحصاء للمؤلفات التي كتبت في حركة عاشوراء إلى نهاية القرن العشرين، ومن خلال مسرد المؤلفات يستطيع الباحث أن يلحظ آثار الدموع والأحزان والغم والمصائب والبكاء والغيب في عنوانات ومنطلقات هذه المرحلة، على حساب النهضة والثورة والانتفاضة والحرية التي برزت في كتابات منتصف القرن العشرين، وهذا يعكس غياب الاسترفاد النهضوي والسياسي في هذه المرحلة عند تناول حركة الإمام الحسين بخلاف مؤلفات القرن العشرين، ومنها: طوفان البكاء، مدامع العين، دمع العين، مبكى العيون، مخازن الأحزان، مهيّج الأحزان، رياض الأحزان، قبسات الأحزان، نوحة الأحزان وصحيفة الأشجان، أحزان الشيعة، واحة الغم، بحر الغم، كنز المصائب، وو .

وقد جاءت نصوص أصحاب هذا الاتجاه معبرة عما تقدم من معطى، واليك بعضها:

([157]) ينظر: الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت – لبنان،1403هـ، 98،45-99. والسيد محمد محمد الصدر (ت1421هـ)، أضواء على ثورة الحسين، تحقيق وتعليق: الشيخ كاظم العبادي، الناشر: دار ومكتبة البصائر –بيروت - 1431هـ، 91.

([158]) ينظر: د. إبراهيم بيضون، من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، الناشر: شهاب الدين – قم، الطبعة الأولى – 1427هـ، 189. و د. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت، الطبعة الرابعة -2000م، 263.

([159]) السيد محمد محمد الصدر (ت1421هـ)، أضواء على ثورة الحسين،91.

([160]) ينظر: كتباشنسي تاريخي إمام حسين" عليه السلام"، الناشر: وزارة الأوقاف والثقافة الإسلامية – طهران -2001م،38-39.

يقول السيد **علي بن طاووس (ت664هـ):** " والذي تحققناه أن الحسين عليه السلام كان عالمًا بما إنتهت حاله إليه، وكان تكليفه ما اعتمد عليه ." [161]

ويقول الشيخ **محمد باقر المجلسي** (ت1111هـ) بعد أنَّ نقل عبارة ابن طاووس: " قد مضى في كتاب الإمامة وكتاب الفتن أخبار كثيرة دالة على أن كلا منهم عليهم السلام كان مأمورا بأمور خاصة مكتوبة في الصحف السماوية النازلة على الرسول (صلى الله عليه وآله)فهم كانوا يعملون بها. ولا ينبغي قياس الأحكام المتعلقة بهم على أحكامنا، وبعد الاطلاع على أحوال الأنبياء (عليهم السلام) وأن كثيرًا منهم كانوا يبعثون فرادى على ألوف من الكفرة، ويسبون آلهتهم، ويدعونهم إلى دينهم، ولا يبالون بما ينالهم من المكاره والضرب والحبس والقتل والإلقاء في النار وغير ذلك، لا ينبغي الاعتراض على أئمة الدين في أمثال ذلك، مع أنه بعد ثبوت عصمتهم بالبراهين والنصوص المتواترة، لا مجال للاعتراض عليهم، بل يجب التسليم لهم في كل ما يصدر عنهم ."[162]

ويقول الشيخ **محمد حسن النجفي** (ت1266هـ):" على أنه له تكليف خاص قد قدم عليه وبادر إلى إجابته، ومعصوم من الخطأ لا يعترض على فعله ولا قوله، فلا يقاس عليه من كان تكليفه ظاهر الأدلة والأخذ بعمومها وإطلاقها مرجحًا بينها بالمرجحات الظنية."[163]

واحتمل ذلك السيد **محسن الأمين**(ت1371هـ) رادًا نظرية "استلام السلطة" للسيد المرتضى، يقول: " ولكن الذي يظهر من تصفح مجموع ما جرى للحسين عليه السلام هو خلاف ما أجاب به السيد "قدس سره" إذ يظهر منه ان الحسين عليه السلام كان عازمًا على عدم مبايعة يزيد على كل حال ولو أدى ذلك إلى قتله وكان مقدمًا على ذلك في حالة ظن السلامة إن وجدت وفي حال ظن العطب بل تيقنه ؛ لأنه كان مأمورًا بذلك من قبل جده صلى الله عليه وآله وأبيه عليه السلام بأمر آلهي كما تدل عليه الأخبار الكثيرة كما أن أخاه الحسن عليه السلام كان مأمورا بالصلح والتسليم عند خوف القتل ولا يلزم ان يكون تكليفهما في ذلك واحدًا لجواز اختلاف الأحكام بحسب الأوقات لاختلاف الحكم والمصالح كما أنه لا يجب اتفاقنا معهم في الأحكام التي من هذا القبيل . ولا مانع عقلًا ولا شرعًا من اختلافنا معهم في ذلك ."[164]

ويذهب الشيخ **جعفر التوستري** تحت عنوان " في خصائص صفاته وأخلاقه وعبادته يوم عاشوراء " إلى أن جميع ما حصل للحسين من مزايا وفرائد في حركته، إنما ترجع في الأساس للتكليف الذي وجه إليه وامتثله طائعًا، يقول: " لهذه الخصائص خصوصية ظهرت في صفاته وعباداته يوم عاشوراء بالخصوص، وهي منشأ جميع الخصائص، ألا وهي امتثاله لخطاب خاص به من الله قد امتثله بعبادة خاصة به في يوم واحد، وتحققت بالنسبة إليه ألطاف خاصة في مقابل أجزاء تلك العبادة ؛ وهي ما تحققت من أحد قبله، ولا تحصل لأحد بعده .." [165]

وجاءت هذه النظرية عند **الشيخ أبو الفضل زاهدي قمي** ردًا على سؤال وجه عن مسألة الاقتداء بالإمام الحسين في مواجهة سلاطين الجور. فقال: " لا يمكن التحدّث عن تفاصيل كربلاء وتفسير ما جرى فيها إلَّا في إطار مفهوم التكليف الشخصي".[166]

وفي السياق نفسه يذهب **الشيخ محمد تقي سبهر**، إذ يقول: " كان الحسين عالمًا بمصير استشهاده وعزم عليه، وذلك تابعٌ لحكمة لا يُدرك سرّها إلَّا الله.. وليس لنا أن نقول: لماذا ألقى بنفسه في التهلكة ؟ لأنَّ تكليفه خارج عن تكاليف الخواص والعوام ."[167] وفي نفس المحور والمضمون يأتي المعنى عند بعض العلماء وان اختلفت العبارات بعض الشيء .[168]

([161]) اللهوف في قتلى الطفوف، 18.
([162]) بحار الأنوار، 98،45-99.
([163]) جواهر الكلام،296/21.
([164]) لواعج الأشجان، الناشر: منشورات مكتبة بصيرتي – قم، 1331هـ، 252-253.
([165]) الخصائص الحسينية – خصائص الحسين ومزايا المظلوم، تحقيق: السيد جعفر الحسيني، الناشر: دار الحوراء،53.
([166]) مقصد الحسين، الناشر: مؤسسة بيروز – إيران، الطبعة الثانية-1971م،9.
([167]) ناسخ التواريخ، في أحوال سيد الشهداء، الناشر: المكتبة الإسلامية – طهران، 1398هـ، 266/1.
([168]) ينظر: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، جنة المأوى، الناشر: دار الأضواء – بيروت، الطبعة الثانية، 1988م، 189-192. والسيد محمد محمد الصدر (ت1421هـ)، أضواء على ثورة الحسين، 91.

ويلحظ أن هذه النصوص بشكل عام قد **امتازت بخاصيتين:**

الأولى: أغلقت باب التساؤل والاستفهام بحجة أن الإمام المعصوم لا مجال للاعتراض على أفعاله، فالتسليم هو العنوان الحاكم في الإيمان، ولا مورد لفلسفة الثورة وذلك واضح من عبارات الشيخ محمد حسن النجفي، والشيخ محمد تقي سبهر .

الثانية: هذه النظرية تحبس القضية الحسينية وتمنع استثمارها في الأحكام الشرعية, وما قُدم من أمثله وإن كانت في باب الهدنة أو الخروج على السلطان الجائر، إلَّا أنَّه ينسحب إلى بقية المسائل الفقهية، بعد ان صرف الثورة وجمدها في الاستدلال .

المبحث الثاني: أدلة نظرية التكليف الشخصي ومناقشتها.

احتج أصحاب هذه النظرية بمجموعة من الشواهد النصوصية، وفسروها بالبعد الميتافيزيقي الغيبيّ جاعلين منها حركة متعالية عن الفهم والتعقل، وأبرز ما قدموه من أدلة ما يأتي:

أولًا: إن الحكم الأموي عندما أراد البيعة ليزيد والاعتراف بشرعيته كتب إلى والي المدينة – الوليد بن عتبة – أنَّ يأخذ له البيعة من الناس عامة ومن الحسين خاصة. وأكد على لزوم هذه البيعة مهما كانت النتائج، فبعث الوليد من ساعته نصف الليل إلى الإمام ودعاه إلى البيعة، وبعد حوار دار بينهما، قال الحسين للوليد: " أن هذا الأمر لا يتم إلَّا في العلن، فإذا أصبح الصباح واجتمع الناس ننظر في هذا الأمر ".[169] وذهب الحسين إلى قبر جده، وهنالك غلبه النوم فرأى النبي . وطلب منه أن يأخذه إليه، فأجابه النبي: " لابد من الرجوع إلى الدنيا حتى ترزق الشهادة، لتنال ما كتب لك من السعادة، وإني وأباك وأخاك وأمك نتوقع قدومك عن قريب، ونحشر جميعًا في زمرة واحدة ".[170]

ومثل ذلك ما دار بين الإمام الحسين وأخيه **محمد بن الحنفية،** ونص المحاورة كما يذكرها السيد **علي بن طاووس** عن أبي عبد الله، قال: " سار محمد بن الحنفية إلى الحسين في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها عن مكة فقال: يا أخي إن أهل الكوفة من قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من في الحرم وأمنعه. فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت فقال له: ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد فقال: أنظر فيما قلت. فلما كان السحر ارتحل الحسين عليه السلام فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها. فقال له: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ قال بلى، قال: فما حداك على الخروج عاجلًا فقال: أتاني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ما فارقتك، فقال: " **يا حسين أخرج فإن الله قد شاء ان يراك قتيلًا**"، فقال له ابن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال ؟ قال فقال له قد قال لي: "**إن الله قد شاء أن يراهن سبايا وسلم عليه هذين ومضى.**"[171]

وجه الاستدلال: ان هذه المحاورة والنص الذي سبقها يكشف أن دوافع وموجهات الاتجاه للكوفة كانت غيبية، فلم تكن في قراءات الحسين الأبعاد الاجتماعية أو السياسية، بل كان البعد الديني في الامتثال، وتحمل التكليف الملقى على عاتقه بسمته الشخصية الغيبية هو الباعث . فقدرت له السماء أن يستشهد، وقدرت لأهله بأن يؤسروا، ويؤكد هذا المعنى ما قالته السيدة زينب (عليها السلام) بعد مقتله (عليه السلام) إذ وضعت يديها تحت جسده، وقالت:" **اللهم تقبل منا هذا القربان.**"[172] "لوضوح أن القبول إنما يكون لعمل من أعمال الامتثال والطاعة . وهذا الهدف صحيح، كما أنه بكل تأكيد هدف شخصي له. "[173]

([169]) ينظر: ابن عساكر (ت571هـ)، ترجمة الإمام الحسين، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الناشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية - قم – إيران، الطبعة الثانية -1414هـ، 291-292.

([170]) الشيخ الصدوق (ت381هـ)، الامالي، تحقيق ونشر: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة-قم،الطبعة الأولى-1417هـ،215-217. والشيخ يوسف البحراني(ت1107هـ)، مدينة المعاجز، تحقيق: مؤسسة المعارف الإسلامية،الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية - قم - إيران، الطبعة الأولى -1414هـ،3/ 483-484.

([171]) اللهوف في قتلى الطفوف، 41.

([172]) ينظر:الشيخ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسين، المطبعة: مطبعة الآداب - النجف الأشرف، الطبعة الأولى -1395هـ،2/ 301.

([173]) ينظر: السيد محمد محمد الصدر، أضواء على ثورة الحسين، 90.

ويناقش هذا الوجه سندًا ودلالةً:

أما السند: فالرواية التي ينقلها السيد علي بن طاووس في "اللهوف"، في حوار الحسين مع أبن الحنفية غير معلومة السند، ولا توجد في مصادر الشيعة الأولى. وإنما تم تداولها فيما بعد أخذًا عن ابن طاووس[174]. نعم ورد خبر المنام مسندًا عند الشيخ الصدوق(ت381هـ) في الأمالي، ولكنه ضعيف –عند الإمامية وغيرهم من المذاهب – بإهمال صفية بنت يونس بن أبي إسحاق الهمدانية، ومريسة بنت موسى بن يونس بن أبي إسحاق، وبجهالة بهجة بنت الحارث بن عبد الله التغلبي . [175] وأما خبر الشيخ يوسف البحراني، فقد جاء مرسل بلا إسناد . فيكون السند المتقدم في الاستدلال مشكل.

وأما الدلالة فتناقش بالأمور الآتية:

الأمر الأول: بأنه خلاف تصريحات الإمام نفسه، فهناك محاورات وخطب وكلمات صريحة صدرت في مكة وكربلاء وجهت للأمة، بيّن فيها مشروعه ومغزاه من التحرك ضد الحكم الأموي، وانه ذات نطاق عقلائي، وقابل للفهم الاجتماعي. وفيما يلي بعضها أجعلها تحت العناوين الآتية:

أ– العبء والالتزام الديني .

فقد روى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف، عن عقبة بن أبي العيزا أن الحسين " عليه السلام " خطب أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: " أيّها الناس، إن رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم)قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًا لحرم اللّه ناكثًا لعهد اللّه مخالفًا لسنة رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) يعمل في عباد اللّه بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على اللّه أن يُدخله مُدْخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمان وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام اللّه وحرّموا حلاله وأنا أحق من غيّر. "[176]

وهذا بيان لكلام رسول الله الذي لا يختص به ولا بغيره، بل هو تكليف عام لجميع المسلمين في قبال الكفّار وسلاطين الجور وطواغيت الزمان، كما يدلّ على ذلك عموم الموصول. [177] وقد صرح جماعة من علماء المسلمين– السنة– ان الواجب الديني كان يقضي على الإمام أن ينطلق في ميادين الجهاد دفاعًا عن الإسلام، وفيما يلي بعضهم:

1– قال الشيخ **محمد عبده:** " إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع، وحكومة جائرة تعطله، وجب على كل مسلم نصر الأولى، وخذل الثانية . . . ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين عليه السلام سبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على إمام الجور والبغي الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمنكر يزيد بن معاوية خذله الله، وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب "[178]

2– وتحدث الأستاذ **محمد عبد الباقي سرور** عن المسؤولية الدينية والاجتماعية اللتين تحتمان على الإمام القيام بمناهضة حكم يزيد قال: " لو بايع الحسين يزيد الفاسق المستهتر، الذي أباح الخمر والزنا وحط بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات، لو بايع الحسين يزيد أن يكون خليفة لرسول الله (ص) على هذا الوضع لكانت فتيا من الحسين بإباحة هذا للمسلمين، وكان سكوته هذا أيضا رضى، والرضا من ارتكاب المنكرات ولو بالسكوت أثم وجريمة في حكم الشريعة الإسلامية . "[179]

ب– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

من أبرز العناوين التي حضرت في مشروع الإمام الحسين وكلماته هذا العنوان، وقد أدلى عليه السلام بذلك في مواطن عديدة، ومنها: عند قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله): عندما عزم الإمام التوجه إلى مكة خرج إلى قبر النبي للمرة الثانية، وأباح هناك

([174]) ينظر: السيد محمود الهاشمي، محاضرات في الثورة الحسينية، 41.

([175]) ينظر: الشيخ محمد تقي التستري، قاموس الرجال، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة الأولى – 344-345.

([176]) الطبري(ت310هـ)، تاريخ الأمم والملوك، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت – لبنان، 304/4.

([177]) ينظر: الشيخ حسين المنتظري، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، الناشر: المركز العالمي للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى - 1408هـ، 123/1.

([178]) تفسير المنار، 367/1. وينظر: 12/ 183-185.

([179]) الثائر الأول في الإسلام، 79.

عن مكنونات قلبه، فقال: " وصلى ركعات، فلما فرغ من صلاته جعل يقول:" اللهم هذا قبر نبيك محمد، وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحب المعروف، وأنكر المنكر .."[180]

ووصيته لأخيه ابن الحنفية التي أعلن فيها عن أسباب خروجه على يزيد، فقال عليه السلام" اني لم اخرج أشرًا، ولا بطرًا، ولا ظالمًا، ولا مفسدًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر".

وهذا يفصح أن انطلاقته عليه السلام كانت لإقامة هذا الصرح الشامخ الذي بنيت عليه الحياة الكريمة في الإسلام، وقد انهارت دعائمه أيام الحكم الأموي فقد أصبح المعروف في عهدهم منكرًا، والمنكر معروفًا، وقد أنكر عليهم الإمام في كثير من المواقف، والتي كان منها خطابه إمام المهاجرين والأنصار، فقد شجب فيه تخاذلهم عن نصرة الحق ودحض الباطل، وإيثارهم للعافية[181].

وروى الطبري عنه عليه السلام في خطبة خطبها بذي حسم، قال فيها: " إن هذه الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، فلم يبق منها إلَّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون ألا ترون أنَّ الحق لا يعمل به، وأنَّ الباطل لا يتناهى عنه ؟ ليرغب المؤمن في لقاء اللّه محقًّا; فإنّي لا أرى الموت إلاّ شهادة ولا الحياة مع الظالمين إلَّا برمًا ."[182] ورواه ابن شعبة الحراني أيضًا إلَّا أنّه قال: " لا أرى الموت إلاّ سعادة " وزاد في آخره: " إنّ الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم: يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلَّ الدَّيَّانون."[183]

وورد في زيارته: " أشهد أنّك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر."[184]

ت- المسؤولية الاجتماعية.

إن أحاديث الحسين كانت تنصّ على أسم يزيد تارة، وعلى مثيله تارة أخرى، قال عليه السلام:" **وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد.**"[185] وقال في موضع آخر: " **ومثلي لا يبايع مثله** "**(186)** فأما ما ورد فيه الاسم صريحًا فهو مرتبط بعصره آنذاك، وأما ما كان على سبيل المثال فهو لكل الأيام والعصور، وهنا الإمام يرسم للعالم ملامحه المستقبلية تنبيهًا للأجيال القادمة ؛ لأنَّ الحديث إنما هو عن تكرّر يزيد واليزيديين تباعًا، وهو عن شخصية عامة وليس عن شخص بعينه . فحديثه عن كلّ من كان مثله في مواجهة من هو مثل يزيد، فلا ينبغي له الركون والتراجع .[187]

ويقول الإمام الحسين عليه السلام مخاطبًا والي المدينة: "**ويزيد رجل فاسق، وشارب للخمر وقاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق**" [188]

"وهذا يكشف أن هناك واجب على الخليفة إذا تجاوزه وجب على الأمة إسقاطه، ووجبت على المجتمع الثورة عليه، وهو المبالغة باحترام القانون الذي يخضع له الناس عامة، وإلا فأي تظاهر بخلافه يكون تلاعبًا وعبثًا، ومن ثم وجب على رجل القانون أن يكون أكثر تظاهرًا باحترام القانون من أي شخص آخر، وأكبر مسؤولية من هذه الناحية، فإذا فسق الملك ثم جاهر بفسقه وتحدى الله ورسوله والمؤمنين لم يكن الخضوع له إلَّا خضوعًا للفسق وخضوعًا للفحشاء والمنكر، ولم يكن الاطمئنان إليه إلا اطمئنانًا للتلاعب والمعالنة الفاسقة ." [189]

([180]) الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، 328/44.
([181]) ينظر: الشيخ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسين، 288/2-289.
([182]) تاريخ الأمم والملوك،305/4.
([183]) تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي – قم، الطبعة الثانية -1404هـ، 245.
([184]) الشيخ الطوسي(ت460ه)، مصباح المتهجد،الناشر: مؤسسة فقه الشيعة – بيروت، الطبعة الأولى -1411هـ، 720-721.
([185]) ابن نما الحلي (ت645هـ)، مثير الأحزان، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف،1369هـ، 15.
([186]) الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار،325/44.
([187]) الأستاذ محمد اسفندياري، عاشوراء الحسين وعاشوراء الشيعة، ترجمة: محمد عبد الرزاق، كتاب جدال ومواقف في الشعائر الحسينية، إعداد حيدر حب الله، الناشر: دار الهادي – بيروت، 398-399.
([188]) السيد علي بن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف،17. والشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، 325/44.
([189]) عبد الله العلايلي، الإمام الحسينعليه السلام، دار مكتبة التربية –بيروت، الطبعة الجديدة، 1968م، 94.

الأمر الثاني: يرى السيد **محمود الهاشمي** أن تفسير قضية الحسين بهذا الشكل يتنافى مع الطبيعة البشرية لعمل الأنبياء والأوصياء، نحن وإن كنا نعتقد بأنَّ الأنبياء والأئمة هم ثقل الله في الأرض، وحبله الممدود إلى عالم الشهادة، وهم الواسطة بين العباد وبين الله، إلا انّنا في نفس الوقت نعتقد بأنهم كانوا بشرًا في أعمالهم وبالأخص التي ترتبط بالجانب الاجتماعي من حياة الناس . فكان لتحركاتهم دوافع بشرية مفهومة وعقلانية أمام الناس، والناس تفهمها، ولولا هذه المزية لما استطاعوا أن يغيّروا البشر . نعم أصل التغيير ومنبعه هو عالم الغيب، إلَّا أن مجراه وطريقه ومساره وأدواته بشرية أرضية . [190]

ويؤكد رأيه هذا قوله تعالى:﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ**﴾[191]، فلو أرسل اللَّه إلى الناس ملكًا فلا يخلو: اما أن يبقى على صورته، واما أنَّ يتمثل في صورة البشر ومحال أن يبقى على صورته، وفي الوقت نفسه يكون رسولًا إلى الناس، لأنَّ طبيعة الملائكة غير طبيعة الإنسان، وتبليغ الرسالة يستدعي المعاشرة والمؤانسة، وهي لا تحصل مع تباين الخلق والطباع .[192]

الأمر الثالث: لو كانت القضية خاصة بالحسين عليه السلام، فاللازم أن يتحملها وحده، وان لا يحمل معه أحد، لا من أهل بيته، ولا من أصحابه . بينما لاحظناه يستهدف أخراج من كان مستعدًا لهذا العمل . فاستنهض الناس، وخاطبهم بلسان بيّن أعرب فيه عن المسؤولية الدينية والأخلاقية التي تقع على عاتقهم إزاء تنصيب ومبايعة مثل يزيد . ويثبت ذلك ما رواه زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كتب الحسين بن علي من مكة إلى محمد بن علي " ابن الحنفية ": بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم، أما بعد: **فان من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح**، والسلام ."[193] وهذا أبو بكر ابن العربي يشير إلى أن بعض " الصحابة كانوا ينهونه، **وينهون عنه** "[194] أي انه قد دعا الناس للالتحاق بسبيله ومشروعه .

وجاء عن الطبري(ت310هـ) أن الحسين عليه السلام عندما بلغه مقتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وتوالت عليه الأخبار في تحيز الكوفة لصالح بني أمية، وقف خطيبًا فيمن كان معه من أهله وأصحابه ومن انضم إليه في الطريق من الأعراب، وأصحاب المطامع، وأبلغهم بما جرى، ثم قال: " **قد خذلتنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام** " قال فتفرق الناس عنه تفرقًا فأخذوا يمينًا وشمالًا حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة. " [195]

وبالفعل أنصرف عنه عدد غير قليل من الذين ظنوا انه قادم لبلد استقامت له طاعته وحاله . وبقي جماعة منهم 72 فردًا، وهؤلاء لم يكونوا غيبيين، ولم يخاطبهم الحسين باللسان الغيبيّ غير المعلوم . وكيف له أن يحركهم نحوه وأن يتحملوا من أجله المصاعب والآلام لو كان خطابه متعاليًا على الاشتراطات الزمنية، ودلالات الواقع ؟! يزاد على ذلك أننا وجدناهم يتحدثون عن أهداف الحركة وأبعادها ومندمجين معها، ويقرؤون الوضع الإسلاميّ، وكانوا ينصحون أهل العراق ويزيلوا عنهم الغشاوة، ولاسيَّما في كربلاء، وهو ما يشير إلى انصراف الأهداف عن الجانب الغيبي التخصصي في الحركة الحسينية .

قد يقال أن قوله لأخيه أبن الحنفية: " **فان من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح** " لا يفيد في الاستدلال ؛ لأنَّه يشير بجلاء إلى أنه قد خرج وهو عالم بموته ونهايته. ولا ريب في عدم تحقق النصر والفتح . ومن هنا، فلا تبرير ولا تصور لتحرك الإمام من أجل أن يقلب الواقع الفاسد لواقع سليم إلَّا القول بالعبد الشخصي الغيبي لحركته .

([190]) ينظر: محاضرات في الثورة الحسينية، 31-33.

([191]) سورة الأنعام، 9.

([192]) الشيخ محمد جواد مغنية(ت1400هـ)، الكاشف، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الثالثة -1980م، 164/3. وينظر: السيد محمد حسين الطباطبائي (ت1402هـ)، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 23/7. والنحاس (ت338هـ)، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى، 1409هـ، 10/5. وفخر الدين الرازي (ت606هـ)، تفسير الرازي، بلا مشخصات مكتبية، 162/12.

([193]) جعفر بن قولويه القمي (ت367هـ)،كامل الزيارات، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، الناشر: مؤسسة الفقاهة،الطبعة الأولى 1417هـ، 157. والشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، 87/45.

([194]) العواصم من القواصم، 326.

([195]) تاريخ الأمم والملوك، 4/300-301.

ويجاب بأن هذه الرواية وغيرها مدلولها ان الإمام الحسين كان يعرف أن نهاية المسيرة الشهادة، وارد أن يوضح للناس أن طريقه سينتهي بكربلاء ليوطنوا أنفسهم . وهذا ما يفسر حديثه وهو في طريقه عن أوصاله التي تقطعها عسلان الفلوات . إلَّا أن هذه المسألة غير التفسير الشخصي الغيبي، إذ ربّما يشخص قائد ان حركته سوف تنتهي إلى الشهادة، لكن مع ذلك انطلاقه في حركته مفهوم وعام . وما أكثر أصحاب الثورات الإسلاميَّة والمادية الذين يتوفر لديهم العلم بالنهاية التي تضعهم في مرجل الموت، ومع ذلك يقدمون، لهدف أبعد من وجودهم في الحياة، إذ يشخصون ان الهدف الذي قاموا من أجله واعتقدوا بلزوم تحقيقه لغاية ما، يتوقف على الاستشهاد، فيبذلون دمائهم رخيصة في سبيله.[196]

رابعًا: ذهب الشيخ **جعفر التوستري** إلى أن ثورة الحسين عليه السلام وفق الفقه الإسلامي تنفرد عن الجهاد العام بمجموعة من الأمور، وهو ما يؤكد خصوصية التحرك الحسينيّ، ومنها:

أ- ان من شرائط الجهاد في الحرب أن يكون الواحد باثنين، فيلزم ثبات كل واحد في مقابل اثنين، ولا يجب الجهاد إذا كان عدد العدو عشرة أضعاف المجاهدين . ولكن الحسين عليه السلام قد كتب عليه القتال وحده في مقابل ثلاثين ألفًا أو أكثر .

ب- أنَّه لا جهاد على الصبيان ولا على الشيخ الكبير، وقد شرع الجهاد في واقعته على الصبيان مثل القاسم، وعبد الله بن الحسن، وعلى الشيخ الفاني كحبيب بن مظاهر .

ت- من شرائط الجهاد أن لا يظن الهلاك، ولكنه قد علم بأنه يقتل . وفي هذا إلقاء للنفس في التهلكة مع العلم بعدم إحراز النكاية بالأعداء وهو حرام بنص القرآن، قال تعالى: **﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**[197]. ومن ثمَّ، لا مجال إلَّا أن تفسر الحركة الحسينية بالبعد الشخصي .

ث- ان أعداءه قد خالفوا في سلوكهم معه حتى الأحكام التي جعلها الله للقتال مع الكفار، وهي كثيرة، ومنها: عدم القتال في الشهر الحرام، وأن لا يقتلوا صبيًا ولا امرأةً، وأن لا يحرقوا الزروع والمتاع، وأن لا ينقل رأس من المعركة، وأن لا يُسلَب كبير الأعداء إلَّا إذا قتل، وو.[198]

ويناقش هذا الاستدلال بما يأتي:

أولًا: ان عدم توفر بعض الأحكام التفصيلية الفقهية في أحكام الجهاد الإسلامي لا يجعل منها حركة بتكليف وتخطيط غيبي، نعم هذا يعطيها مزايا من حيث طبيعتها الاستثنائية بلحاظ الظروف المحيط بها . مثل بعض العناوين الثانوية التي قد تسقط الكثير من العناوين الأولية في موردها، وبالتالي لا تلازم بين هذا الأمر وبين خصوصية الحركة ومعقوليتها.[199]

ثانيًا: لا خصوصية هنا في موضوع إشراك الأطفال، وكبار السن؛ لأنَّ الأحكام تتحدث عن الوجوب وليس الجواز، فيكون الاشتراك غير محرم بعد قبولهم، ورضي أهلهم، ومع تحقق المصلحة بذلك .

ثالثًا: وموضوع التهلكة يمكن الجواب عليه من وجهيّن:

الوجه الأول: يحتمل أن يكون المراد من التهلكة ليس الدنيوية، بمعنى تحمل الموت أو المصاعب كما يريد الناس أن يفهموا منها،بل التهلكة الأخروية، وهو التسبيب إلى الوقوع في جهنم بالذنوب والباطل، ولا أقل من احتمال ذلك، بل من الواضح أن التعاليم الأخرى الموجودة في سياقها (أنفقوا– ولا تلقوا – وأحسنوا) هي من الطاعات فتكون قرينة محتملة، على أن المراد من هذا النهي التحذير عن ترك الطاعات، والوقوع في المعاصي.[200]

([196]) ينظر: السيد محمود الهاشمي، محاضرات في الثورة الحسينية، 41-42.
([197]) سورة البقرة، 195.
([198]) الخصائص الحسينية، 60-61.
([199]) ينظر: الشيخ حيدر حب الله، الحركة الحسينية والتأصيل الفقهي لشرعية الثورة،" دراسات في الفقه الإسلامي المعاصر"، بلا مشخصات،3/ 324/3.
([200]) ينظر: السيد محمد الصدر، أضواء على ثورة الحسين، 58-59.

وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من المفسرين[201]، يقول الرازي (ت606هـ): (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة هو الرجل يصيب الذنب الذي يرى أنَّه لا ينفعه معه عمل فذاك هو إلقاء النفس إلى التهلكة فالحاصل أن معناه النهي عن القنوط عن رحمة الله، لأن ذلك يحمل الإنسان على ترك العبودية والإصرار على الذنب.) [202]

الوجه الثاني: إن التهلكة إنما تحرم ما دام صدق العنوان موجودًا، أو قل: إذا كان العرف يوافق على أنها تهلكة فعلًا . وأما إذا لم تكن كذلك، خرجت عن موضوع التهلكة فلم تصبح محرمة، ولا شك أن المفهوم عرفًا وعقلائيًا إن التهلكة إنما تكون كذلك والصعوبة إنما تكون صعوبة، فيما إذا كانت بدون عوض أو بدل.[203]

وقد أشار بعض المفسرين لهذا المعنى، إذ نقل الشيخ الطوسي عن البلخي:(من أن معناها: لا تتقحموا الحرب من غير نكاية في العدو، ولا قدرة على دفاعهم). [204]

" ونحن نرى الناس كلهم – تقريبًا– يضحون بمختلف التضحيات في سبيل نتائج أفضل، سواء من ناحية الأرباح الاقتصادية أم المصالح الاجتماعية أم النتائج السياسية أم الثمرات العلمية، وهو ما يحتاج إلى تضحية قبل الوصول إلى النتائج، ومن الواضح أن هذه النتائج ما دامت مستهدفة لم يعتبرها الناس تهلكة أو خسارة، بل يعدونها ربحًا وفيرًا، ورزقًا كثيرًا، لأنها مقدمات لها . وإذا طبقنا ذلك على حركة الحسين، أمكننا ملاحظتنا مع نتائجها بكل تأكيد، سواء النتائج المطلوب تحقيقها منها في الدنيا أم المطلوب تحقيقها في الآخرة، فإنها نتائج كبيرة ومهمة جدا .. ومن الواضح عقلًا وعرفًا وعقلائيًا، إننا إذا لا حظنا مع نتائجها لم تكن (التهلكة) بأي حال، بل كانت تضحية بسيطة – مهما كانت مريرة – في سبيل نتائج عظيمة ومقامات عالية في الدنيا والآخرة، لا تخطر على بال، ولم يعرفها مخلوق، ويكون الأمر بالرغم من أهميته القصوى، بمنزلة التضحية بالمصلحة الخاصة في سبيل المصلحة العامة . وفي ذلك لا يكون حق أحد الإرجاف بأنها " تهلكة " فإذا لم تكن تهلكة لم تكن مشمولة لحكم التحريم."[205]

رابعًا: أما الاستدلال على الخصوصية بخرق أعدائه للمألوف من قواعد الاشتباك عند المسلمين والعرب، فلا يصيرها بوجه من الوجوه بالتكليف الخاص، وهو قول غريب في المورد، فخرق وانتهاك الأعراف الحربية، قلما تخلوا منه معركة وتنازع، وتاريخ البشرية حافل بذلك .

المبحث الثالث: الآثار الفقهية المترتبة عليها.

ننتقل في هذا المطلب لإيضاح الآثار المترتبة على هذه النظرية، واليك بصماتها في الميادين الآتية:

المطلب الأول: التعمية على الفقه السياسي.

من أبرز الصور والحالات الفقهية التي تعكس آثار الفهم الغيبي في التعمية السياسية على المشروع الحسيني، العناوين الآتية:

الأول: حرمة الإضرار: والمراد منها هو حرمة تعريض النفس للهلاك وعدم دفعها للتهلكة . وأشار مجموعة من العلماء إلى حركة الحسين عند البحث في موضوعات الفقه السياسيّ الإسلاميّ، وحاول بعضهم توجيهها حتى تتسق مع مدلول الأدلة الناهية عن ذلك ومن أبرزها قوله تعالى **﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾** وقد تقدم حديثنا عن ذلك وقلنا: إن حركة الحسين خارجة عن حرمة الإلقاء موضوعًا وحكمًا .

([201]) ينظر:الشيخ الطوسي (ت460هـ)، التبيان في تفسير القرآن، 152/2. والطبرسي (ت548هـ)، مجمع البيان، 2/ 35. وعبد الرزاق الصنعاني(ت211هـ)، تفسير القرآن، تحقيق: الدكتور مصطفى مسلم محمد الطبعة: الأولى- 1410هـ، الناشر: مكتبة الرشد،1/ 74.والطبري (ت310هـ)، جامع البيان، 278/2. والنحاس(ت338هـ)، معاني القران، 1/ 111. والثعلبي(ت427هـ)،الكشف والبيان عن تفسير القران، 93/2. والقرطبي (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القران، 2/ 362. وابن حجر(ت 852هـ)، العجائب في بيان الأسباب،حقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس الطبعة، الناشر: دار ابن الجوزي، الأولى - 1418هـ، 1/ 478.

([202]) تفسير الرازي، 5/ 151.

([203]) السيد محمد الصدر(ت1421هـ)، أضواء على ثورة الحسين عليه السلام،59.

([204]) التبيان في تفسير القرآن، 152/2.

([205]) السيد محمد الصدر، أضواء على ثورة الحسين، 59-60.

الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو من أبرز الفرائض والتكاليف الدينية، فهو الحافظ والحارس على تنفيذ الأحكام، والملاك في خيرية الأمة، وقد ذهب الشيخ محمد حسن النجفي إلى عد الجهاد الابتدائي من مصاديق الأمر والنهي .[206] والباحث في أغلب العبادات كالصلاة يجد أن الدافع فيها هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر قال تعالى:﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾[207] . وقد استدل الفقهاء لإثباته بالأدلة النقلية والعقلية.[208]

والواجب فيه على الكفاية يخاطب به الكل، ويسقط بفعل البعض . واتفقت كلمة الفقهاء على أن للأمر والنهي ثلاث مراتب: الإنكار بالقلب، والإنكار باللسان، والإنكار باليد . وهذه المراتب متدرجة في المشروعية فلا يصار لمرتبة أعلى وأشد إلَّا بعد إحراز عدم تأثير الدرجة الخفيفة، واشترطوا له أمور، وهي: أولًا: معرفة المعروف والمنكر . ثانيًا: احتمال التأثير بفعل المعروف وترك المنكر.ثالثًا: الإصرار على العصيان . رابعًا: إحراز عدم حصول الضرر في أدائهما[209]، وإذا لاحقنا بعض نصوص الحسين – التي تقدمت – يمكن عدّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد بواعثه الحركية، ولاسيَّما أن أركان الدين وأصوله أمست في خطر عظيم مع الحكم اليزيدي . فتطويق الحركية الحسينية في أبعاد غيبية تخصصية، سيزيحها عن دائرة الاستدلال الفقهي في موضوع مهم كالأمر والنهي الذي وردت به نصوص واضحة يمكن لها أن تترك أثرًا مهمًا في فهم هذا الباب الفقهي، ورفده بمعطيات تسهم في تكشيف بعض المناطق المستبعدة، ولكن هذه النظرية ستقضي على رافد استدلالي مهم، له جنبه سياسية عظيمة، عن طريق حكمها باختصاص الحسين بالتكليف دون سواه. فنكون أمام نتيجة: لا دور للبحث والتقييم الفقهي لشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حركة الحسين!

والثالث: الخروج على الحاكم الجائر وهو موضوع خلافي بين المدارس الإسلاميّة، وكان قد أخذ عدة تسميات في الكتابات، منها: الخروج بالسيف [210]، الخروج[211]، والثورة الإسلامية[212]، والثورة،[213] وقتال الأمراء [214]، الانقلاب[215]، الحرب الأهلية[216]، وغيرها.

وتوجد بالجملة ثلاثة أقوال فقهية تحدد الحال الذي يجوز فيه الخروج على الحاكم، وهي: **القول الأول:** هو رفض الثورة والخروج في عصر الغيبة، كما هو المشهور عند الشيعة الإمامية، وقد وردت جملة من الروايات الناهية عن الخروج بالسيف على الحكومات الإسلامية الجائرة قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام، وعمل بها عدد غير قليل من الفقهاء .

القول الثاني: مشروعية الخروج على الحاكم الجائر إذا أمكن أن يُزال بالسيف . كما هو رأي الخوارج والزيدية .[217]

القول الثالث: جواز الخروج، ولكن بشرط عدم حصول الفتنة، وانقسام الأمة، وشيوع الفوضى واختلال النظام العام لحياة المجتمع، مع العلم والوثوق بكون النتيجة هي إقامة الحكم الإسلامي العادل . وذهب لهذا عدد من فقهاء الإمامية والسنة .[218]

وأساس الاختلاف في هذه المسألة هو في أنَّ الشروط المعتبرة في الإمام[219] كالإسلام، والنص عليه، والعصمة، والحرية والعقل، والنسب والكفاءة والعدالة، هي شروط لانعقاد الإمامة فقط، وبعد انعقادها لا يؤثر في استقرارها زوال الشروط، أو أنها

([206]) ينظر: جواهر الكلام، 21 / 361 .
([207]) سورة العنكبوت، 45 .
([208]) ينظر: العلامة الحلي (ت726هـ)، تذكرة الفقهاء، 9/ 441 .
([209]) ينظر: الشيخ المفيد (ت413هـ)، المقنعة،تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي – قم، الطبعة الثانية -1410هـ، 809، والشيخ الطوسي، النهاية، الناشر: انتشارات قدس محمدي – قم، 299 .
([210]) ينظر: الأشعري (ت 324هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، 451.
([211]) ينظر: محمد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم، 642-645.
([212]) ينظر: محمد سيد عبد التواب، الدفاع الشرعي في الفقه الإسلامي، 471.
([213]) الوثائق الإدارية والسياسية – العهد الأموري، حمادة 257.
([214]) ينظر، زيد بن عبد العزيز فياض، الروضة الندية، شرح العقيدة الواسطية، 481.
([215]) ينظر: محمود الخالدي، معالم الخلافة، 310.
([216]) ينظر: عبد القادر عودة، التشريع الجنائي، 149/1.
([217]) ينظر: الأشعري (ت 324هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، عُني بتصحيحه: هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة الثالثة،451.
([218]) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، فقه العنف المسلح في الإسلام، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر – بيروت، الطبعة الأولى -1422هـ، 58.

شروط انعقاد واستدامة . فإذا اختل أحد الشروط في الإمام انعزل عن الإمامة، وكان للأمة عزله عنها،أو وجب على الأمة عزله عنها ؟ [220]

ومن هنا **نطرح السؤال الآتي:** هل يمكن للفقهاء أن يوردوا موقف الحسين في معرض الاستدلال على مشروعية الكفاح المسلح ضد الحكم المنحرف ؟

وبعبارة بديلة: هل نستطيع أن نتلمس في توجه الحسين مشروعية لتحرك مسلح تقوم به الشعوب المقهورة التي عربدت عليها سياط الظالمين، ووقعت تحت حراب الجبارين أم لا ؟

الجواب: لامجال للأسوة والمشروعية وفقا للفهم التخصصي؛ لأن هذه النظرية قد عمّت وضيعة الحركة الحسينية عن ساحة الاستدلال بوصفها حكم في واقعة. أي أنها لا تشمل إلَّا الحسين، فهي متعالية على الفهم والتعقل. وهذا الأمر ينعكس على بقية موضوعات الفقه السياسي الإسلامي كالجهاد والدعوة، والهدنة، والتقية، وتكون الثمرة: لا دور لثورة الحسين في تعزيز فقه المواجهة مع الجائرين.

فتكون قضية الحسين غير مؤثرة ومربية للشعوب، وتختصر شخصيته في معاناته ورزيته، لتكون النتيجه" الحسين تحرك للمراثي والدمع" وبذلك يستبدل الهدف بالوسيلة، والنتيجة بالمقدمات فتغسل حسب هذا الفهم، كبائر الذنوب بقطرة دمع يذرفها الباكي كفارة عن خطاياه ؛ فيتحول الدمع – في هذه النظرية –إلى هدف ويأخذ صفة المطهرات، لأن نشاط وفعاليات كربلاء نتيجته مأتمًا دائمًا وعزاءً سرمديًا، لتختصر في تأسيس الهيئات العامة والمواكب . نعم التراجيديا هي واحدة من مفاصل كربلاء، لكنها ليست الأصل والغاية . فالأصل هو تأسيس الطابع الحماسي والثوري لتلك الحركة التي بدأها الحسينيون بالحماسة، وختمها اليزيديون بالفاجعة، فعنصر التراجيديا جاء معلولًا لخطيئة الأعداء، ثم انها تراجيديا بمنظارنا الضيّق، وإلَّا فهي عند بطلة كربلاء من الجميل الرائع، ألم تقل السيدة زينب(عليها السلام) لعبيد الله بن زياد عندما خاطبها: بقوله: "كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك"، فقالت:" ما رأيت إلَّا جميلًا "[221] فلم يقتل الحسين من أجل حداد الأمة فقط، بل ضحى بروحه ليحيي الأمّة بدرس التضحية والعزة .[222]

وما أشرنا إلى أن هذه النظرية ظلت طاغية وسائدة في المشهد العاشورائي، وذلك بسبب غياب أو تغيب الشيعة عن ساحة الفقه السياسي تحت ضغط بعض العوامل، وساهمت في طمس وإخفاء شعلة الحماسة والثورة في وجود الشيعة، بحيث لم تعد تشكل تهديدًا للأنظمة المستبدة، ويمكن أن ندرك مدى انفعاليّة هذا التصوير وعدم ضرره من المنظار السياسي من خلال ازدهار تمثيليات الواقعة بتشجيع الحكام وأصحاب السلطة المالية والسياسية، وقد استخدمت في زمان كل من الصفويين والقاجاريين كوسيلة لإحكام سلطتهم على عامة الشعب[223]، فهذا الملك الشاه عباس الصفوي كان يقيمها بنفسه ويشارك في تفاصيلها أيضًا، أو ناصر الدين شاه القاجاري الذي لم يرَ تعارضًا بين ممارساته القمعية وتوفير أفضل وأحدث الإمكانات بغية إقامة مراسيم التشبيه . ويذكر أن عدد الهيئات في مدينة مشهد بلغ في وقتها سبعين هيئةً وموكبًا . [224]

هذه النظرية جعلت كربلاء عالقة في التاريخ من خلال المراسم والمواكب الفارغة من الهدف والفلسفة المنشودة بين الناس، ولكنها بعيدة عن أهدافها الحقيقة، ومثال لذلك ما حصل في محرم عام 1951م إبان هجوم الروس على مدينة تبريز، إذ أخذوا ثقة الإسلام التبريزي لحبل المشنقة في يوم عاشوراء، فما كان من الجماهير إلَّا أن تسير في طريقها تلطم على صدورها دون أن تلحظ ظلم يزيد، كانوا يشتكون ظلم يزيد بالألسن وينادون: " يا حسين يا حسين "، لكنهم يغضون البصر عن إعدام تابع للحسين في

([219]) **الإمامية** يشترطون في الإمام أن يكون: **أولًا:** هاشميًا من نسل علي وفاطمة. **ثانيًا**: النص عليه من قبل النبي . **ثالثًا**: العصمة من كبائر الذنوب وصغائرها. **رابعًا**: الأفضلية في أن يكون مثلا أعلى لتابعيه وأعلم الناس فيما أنيط به من أمور الشريعة . وأما **أهل السنة** -بشكل عام- فيشترطون فيه الشروط الأولية، وهي: الإسلام، الذكورة، البلوغ، الحرية، والعقل، القرشية . ومن ثم تليها الشروط الثانوية، وهي: العلم والكفاءة والعدالة . ينظر: الشيخ محمد مهدي شمس الدين، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، 136-139.

([220]) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر – بيروت، الطبعة السابعة، 1420هـ، 171.

([221]) ابن نما الحلي (ت645هـ)، مثير الأحزان، الناشر: المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، 1369.

([222]) الأستاذ محمد اسفندياري، عاشوراء الحسين وعاشوراء الشيعة، 391-392.

([223]) ينظر: حميد عنايت، أنديشه سياسي در إسلام معاصر، ترجمة: بهاء الدين خرمشاهي – طهران، الطبعة الثالثة، 1993م، 313.

([224]) الأستاذ محمد اسفندياري، عاشوراء الحسين وعاشوراء الشيعة، 401.

نهجه على أيدي الجيش الروسي . وقبيل تنفيذ الحكم قررت بعض الطلائع الحرة أن تحشد الناس في مكان الإعدام وتستنهضهم في إنقاذ هذا العالم، ولهذا الغرض توجّهوا إلى إحدى هيئات المدينة وكانت مركزًا لمواكب التطبير، وهناك قالوا لزعيمهم: " إنكم مستعدون لضرب رؤوسكم بالسيف من أجل الحسين، فهل تعلمون بأمر إعدام ثقة الإسلام على أيدي أجنبية مستبدّة ؟ أنتم بأعداد مؤلفة وهم لا يتجاوزن المائتي جندي، فتعالوا وأثبتوا موقفكم . وانتماءكم الحسيني بإنقاذه، وتيقنوا أن الحسين يثمّن هذه الرجولة أكثر من أي شيء آخر " . فكان رد زعيمهم: أخي إنهم يحملون أسلحة قاتلة ! "[225]

وهذا الأمر اختلف بعد النصف الثاني من القرن العشرين – كما اشرنا –، مع القراءات والأفكار الجديدة التي أعادة لحركة الحسين وجودها وحضورها في تعبئة الأمة، فهذا **الشيخ أبو القاسم الكاشاني** 1947م يلقي خطابًا في الجماهير عرض من خلاله أهداف الحسين، ودعا الناس إلى رفض الأفكار التي تحبس ثورة الحسين عن الساحة السياسية والاجتماعية، وأن اللازم الاقتداء به لمواجهة انحطاط التي تعيشه الدول الإسلامية كإيران وفلسطين وباكستان . [226]

وقد تجلت هذه القراءات الجديدة سواء أكانت – الثورة السياسية وإسقاط الحاكم الجائر، أم تنبيه الأمة، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – في مشاهد مهمة من وجود الأمة الإسلامية، ففي عاشوراء عام 1399هـ شهدت إيران أضخم مظاهرة في تاريخها ضدّ الحكم البهلوي بوحي من نهضة الحسين، وليس هناك يوم بين أيام الثورة الإسلامية في إيران أهم من هذا اليوم، فقد كان سقوط الشاه مؤرخًا بهذا اليوم تحديدًا، وليس هو إلَّا استفتاء عام أُجري دون تسجيل أسماء.[227]

المطلب الثاني: التعمية الفكرية في رد الشبهات.

ترفض هذه النظرية تقديم معطى حكمي عن الثورة الحسينية، شاطبة بذلك كل محاولات التعقل والتفكير المنطقي؛ معتلة بأن الإمام الحسين معصوم، وان المعصوم لا يعترض على أفعاله وأقواله، وأن اللازم التسليم بكل ما يصدر منه، وقد مر ذلك في كلام الشيخ محمد حسن النجفي والشيخ محمد باقر المجلسي عند عرضنا لمفهوم النظرية .

ولكن هذا التعاطي المتعلقة بفهم الحركة له اثارٌ فكريةٌ وفلسفيةٌ على مستوى التبليغ والبيان، ومنها:

أولا: لقد تعرضت ثورة الحسين لاعتراضات وإشكالات غير قليلة بعضها جاء من داخل الساحة الإسلامية، ومن بعض شيعته، والبعض الآخر من خارجها، يقول الشيخ هاشم معروف الحسني عن صلح الحسن وثورة الحسين: " لقد اختلفت مواقف الكتاب والمتحدثين عن صلح الحسن وثورة الحسين، فاستصوب صلح الحسن وخطأ الحسين في ثورته جماعة، ووقف جماعة منهم موقفا معاكسًا فخطأوا الحسن وصوبوا الحسين، كما استصوب موقفهما فريق ثالث ." [228]

فمن داخل الساحة الإسلاميَّة وصل الأمر بالتشكيك إلى بعض الشيعة، نتيجة لاختلاف فعل الحسن والحسين(عليهما السلام) وموقفهما. فالأوّل هادن معاوية وقعد عن القتال، وهو في كثرة من أنصاره، والثاني خرج لقتال يزيد في قلّة من أنصاره وأهل بيته حتى قتلوا جميعًا؛ لذلك يقول النوبختي: " فشكّوا لذلك في إمامتهما، فدخلوا في مقالة العوامّ ومذاهبهم، وبقي سائر أصحابه على إمامته ."[229]

وزد على ذلك آراء أبو بكر ابن العربي، وابن حزم الأندلسي، وابن خلدون، وابن تيمية، وبعض اباضية الخوارج والسلفية، فقد تناولوا الحركة الحسينية بالنقد والتجريح– نتيجة للمشايعة الأموية –، وإليك بعض أقوالهم:

يقول **أبو بكر ابن العربي**(ت543هـ): " وقال: وما خرج إليه أحد إلَّا بتأويل، ولا قاتلوه إلَّا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل، المخبر بفساد الحال، المحذر عن الدخول في الفتن . وأقواله في ذلك كثيرة، ومنها ما أخرجه مسلم عن عرفجة بن شريح

([225]) مصطفى دلتشاد الطهراني، مدرسة حسيني، طهران 2002م، الطبعة السادسة، 17. نقلا عن محمد اسفنديارى، عاشوراء الحسين وعاشوراء الشيعة، 402-403.

([226]) ينظر: خطابات آية الله الكاشاني، جمعها: م . دهنوي، الناشر: جابخش – طهران، 1982م، 1/ 21-26.

([227]) الأستاذ محمد اسفنديارى، عاشوراء الحسين وعاشوراء الشيعة، 400.

([228]) سيرة الأئمة الأثني عشر، منشورات الإمام الرضا – بيروت، الطيعة السابعة، 2/ 85.

([229]) فرق الشيعة، 24 . والقمي، سعد بن عبد الله، كتاب المقالات والفرق، تحقيق: محمد جواد مشكور، طهران، 1963، 23 .

عن سول الله أنه قال: " ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان ". وما خرج الناس إلَّا بهذا وأمثاله. وإذا كانت الخلافة قد خرجت من أخيه ومعه جيوش الأرض وكبار الخلق يطلبونه فكيف ترجع إليه بأوباش الكوفة، وكبار الصحابة كانوا ينهونه وينهون عنه .[230]

يقول ابن تيمية الحراني (ت728هـ): " لمّا أراد الحسين رضي اللّه عنه أن يخرج إلى أهل العراق لما كاتبوه كتبًا كثيرًا، أشار عليه أفاضل أهل العلم والدين أن لا يخرج، وهم في ذلك قاصدون نصيحته طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين، واللّه ورسوله إنما يأمر بالصلاح لا بالفساد، لكن الرأي يصيب تارة ويخطئ أخرى، فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك، ولم يكن في الخروج لا مصلحة دين ولا مصلحة دنيا."[231]

وقد سجل **ابن خلدون**(ت808هـ) اعتراضه على توجه الحسين وخطأه، مبررًا ذلك بعدم نجاحه في قراءة توازنات القدرة، يقول: " لقد رأى الحسين أن الخروج يتعيّن على يزيد من أجل قيامه بالفسوق، ولاسيَّما من له القدرة على ذلك، وظنها من نفسه بأهليّته وشوكته، فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادةً، وأما الشوكة فغلط ." [232] وبعد بيان أسباب عدم القدرة قال: "فقد تبين لك غلط الحسين إلَّا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله" [233]

وهنا لابد أن نسجل تعجبنا من القول الأخير، فبعد أن خطأ الحسين نسب نتيجة ذلك إلى إرادة الله . فيرى أن الحسين تحرك لما أراده الله في فرض كونه زالًا !

وأما المستشرقون فأن أغلبهم قد خطأوا الحسين في حركته، وإليك بعض كلماتهم:

يقول المستشرق الألماني يوليوس ڤلهوزن (ت 1918م): " لقد مد الحسين بن علي يده كالطفل ليأخذ القمر وادعى أعرض الدعاوى ولكنَّه لم يبذل شيئًا في سبيل تحقيق أدناها بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل شيء، ولم يكد يصطدم بأول مقاومة حتى انهار فأراد الانسحاب ولكنه كان ذلك متأخرًا فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة . لقد كان مقتل عثمان مأساة، أما مقتل الحسين فكان قطعة مسرحية انفعالية، ولكن عيوب الحسين الشخصية تختفي أمام هذه الواقعة، وهي أن دم النبي يجري في عروقه وانه من أهل البيت ".[234]

ويقول المجري **اجناس جولدتسيهر** (ت1921م): " بعد ولاية الأمويين الخلافة بقليل ؛ سنحت لشيعة علي في عهد يزيد بن معاوية فرصة دل اختيارهم لها على الطيش وقصر النظر، وأشركوا الحسين في نزاع دام مع الغاصب الأموي ." [235]

وعليه، كيف يمكن أن نجيب على هذه التحليلات والإشكالات التي قدمها هؤلاء – بغض النظر عن دوافعهم النفسية والفكرية – لصورة الحادثة وخلفياتها ؟ فهل يكفي أن نقول لهم: بان الإمام الحسين معصوم، وان التسليم هو التكليف المتعين ؟!

ان الأسبقيات العقائدية وإسقاطاتها في قراءة الأحداث وتفاصيلها لا يسعها أنَّ تجيب وتواجه هكذا نوع من البحوث تتعدد فيها المنطلقات المعرفية . ولذا نجد ان السيد المرتضى (ت436هـ)، يلتفت لذلك فيرفد الحركة الحسينية بمعطى تحليلي فلسفي في كتابه "تنزيه الأنبياء" . ثم ان الاعتقاد بعصمتهم لا يعني أن بحث وقراءة مبررات الثورة وظروفها نحو من الردّ عليهم كما حاول أن

([230]) العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب، مشورات مكتبة السنة – القاهرة، الطبعة السادسة، 1412هـ،244-245.
([231]) منهاج السنة النبوية - في نقض كلام الشيعة والقدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة الطبعة الأولى 1406هـ، 530-531.
([232]) مقدمة ابن خلدون، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة، 216/1.
([233])، 217/1.
([234]) أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1958م، 187-188.
([235]) العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة علي حسن ومحمد يوسف وعبد العزيز عبد الحق، مكتبة المثنى –بغداد ودار الكتب الحديثة – مصر، الطبعة الثانية، 197.

يصور ذلك الشيخ محمد حسن النجفي في كلامه الذي عرضناه في المبحث الأول، بل هي للاستئناس بسنتهم بوصفها مصدرًا للتشريع .

الخاتمة

أن المرضي لنا مما تقدم إزاء أهم التساؤلات التي اكتنزها البحث، وعملنا على الإجابة عليها هو ما يلي:

أولًا: لقد عرضنا الأدلة التي اعتل بها أصحاب هذه النظرية وأجرينا النقاش فيها، فوجدناها غير قابلة للصمود أمام الملاحظات السندية والدلالية التي تصرف مضمونها عن المطلوب.

ثانيًا: خطورة هذه النظرية تكمن في شطبها للحركة الحسينية عن دائرة الاستدلال الفقهي والحقوقي في شتى الأبواب الفقهية، وتمارس التعمية السياسية عليها، لتجعلها حركة متعالية عن الاشتراطات الزمنية والعقلانية، فتطوق كربلاء في النزوع العاطفي فقط، وتفرغها عن مخزونها الحماسي، وهذا ما سيطر على محددات المخيال الشيعي لقرون عدة، وكان للتشجيع السياسي أثر في الحشد لها.

ثالثًا: تبين لنا أن الفهم الغيبي التخصصي لا يسعه احتواء المفارقات المعاصرة التي قدمها عدد غير قليل من الباحثين من داخل الساحة الإسلاميَّة أو خارجها. فهي تكتفي بالحكم بعصمة الإمام، وتربط هذه العصمة في البعد العقائدي لتسقطه على حركته السياسية، من دون الأخذ بدلالات الواقع التاريخي والعرفي في فهم الأحداث وسياقاتها الطبيعية من تبليغ وهداية وإرشاد عقلائي.